

فاعلية المرأة التارقية في أدب إيموهاغ

The Role of Touareg Women in Imouhag Literature

عبد الرحمن حمداوي

Abderrahmane Hamdaoui

مخبر "أطلس" للثقافة الشعبية الجزائرية

جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله (الجزائر)

Universiti of Algiers2 (Algeria)

dahmanekacem6@gmail.com

تاريخ النشر: 2025/06/02

تاريخ القبول: 2025/05/12

تاريخ الإرسال: 2025/03/17

مُلَخِّصُ الْمَجَلَّةِ

إن الأدب عموماً مرآة المجتمع، فمن خلاله تتم ترجمة حياة الأفراد، وتنعكس أفراحهم وأقراحهم، والأدب التارقي لم يشذ عن هذه القاعدة، فقد حمل أدباء التوارق إبداعاتهم إلى العالم من خلال الباحثين والمهتمين بميدان التراث في أهقار وتاسيلي وغيرها.

وقد كان للمرأة بهذا الأدب العريق حضور مميز، إذ كانت هي الموضوع المثار من جهة، وهي المنشئ والناقل من جهة أخرى، ومقالنا يهدف إلى محاولة بيان فاعلية المرأة التارقية في ميدان الإبداع الفكري والأدبي في مجتمعاتها. فهل استطاعت المرأة التارقية من خلال إنتاجها الشفوي إظهار جوانب من الحياة التارقية؟ وأي دور لها في نقله والحفاظ عليه تراثاً عريقاً؟

وقد استعنا في هذه الدراسة بالمنهجين التاريخي والاستقصائي، من أجل تتبع أثر الحضور النسوي في أدب التوارق.

الكلمات المفتاحية: أدب تارقي - امرأة تارقية - حضور - مجتمع - تراث.

Abstract :

Literature in general is a mirror of society. Through it, the lives of individuals are translated, and their joys and sorrows are reflected. Tuareg literature is no exception to this rule. Tuareg writers have brought their creativity to the world through researchers and those interested in the field of heritage in Ahaggar, Tassili, and elsewhere.

Women had a distinct presence in this ancient literature, as they were the subject of discussion on the one hand, and the creator and transmitter on the other.

* عبد الرحمن حمداوي. dahmanekacem6@gmail.com.

Our article aims to demonstrate the effectiveness of Tuareg women in the field of intellectual and literary creativity in their society. Were Tuareg women able, through their oral production, to reveal aspects of Tuareg life? What role do they play in the transmission and preservation of this ancient heritage? In this study, we used historical and investigative methods to trace the impact of the presence of women in Tuareg literature. Keywords : Tuareg literature - Tuareg women - women's presence - society - heritage.



مقدمة:

مقياس التحضر والتقدم بين الشعوب والأمم مدى رقيها في مختلف الميادين والمجالات المادية والمعنوية، ومنه الإبداع الفكري للأمة. ومن هذا المنطلق يمكن القول بأن المجتمع التارقي، شأنه في هذا شأن غيره من الشعوب والمجتمعات قد عكس أدبه مناجي حياة أفرادها وأسره، بل ونقل أحاسيسهم ومشاعرهم، كما عالج أفراسهم وما يحدث فيها، وأحزانهم وكيف يتعاملون معها، فقد كان - وبحق - مرآة عاكسة، وصورة طبق الأصل عن حياة "إيموهاغ". ولم يغفل الأدب التارقي بمختلف أنواعه وأشكاله المنظومة والنثرية من التعريف بالبطل الذي تدور حوله معظم العمليات الفكرية، باعتباره الوسيلة الأساسية في النقل الأمين لهذا التراث اللامادي عبر العصور، ومن جيل إلى آخر، بفضل المرأة التارقية، التي نالت في أدب التوارق حصة الأسد والحظ الأوفر، وهذا من ناحيتين اثنتين، أولاها: أنها (المرأة التارقية) كانت موضوعا لما لا يمكن حصره - إلى حد الساعة - من الأشعار والحكم والأمثال والأدوار البطولية في القصص والحكايات والأساطير، وأما ثانيهما: كونها (تماهق)، هي المؤدّي والمنشد لهذه الأشعار "تيسوي"، في مختلف المناسبات التي تُقام سواء في بيئتها أو خارجها، وكما لا يخفى عن المهتمين والدارسين أنّ المرأة التارقية هي صاحبة آلات العزف والأداء، فالمرأة التارقية هي من يعزف على "الإمزاد" وهي التي تضرب على "التيندي".

من أجل الوقوف على هذه الأدوار التي تؤديها المرأة في مجتمع "إيموهاغ"، وظلنا المنهجين التاريخي والاستقصائي كمنهجين أساسيين، ومستعنيين بما يخدم المقال من آليات كالتحليل على سبيل المثال لا الحصر، وكل هذا من أجل تجلية فكرتنا وإبرازها، ومنه محاولة تبيان دور المرأة في المجتمع التارقي. فهل استطاع الأدب التارقي عكس دور المرأة التارقية حقا؟ وهل كل ما جاء من تراث لامادي تارقي أنصف "تماهق"، وأعطاه حقها؟

المرأة التارقية حافظة التراث:

إن الحديث عن الدور الذي تلعبه المرأة في المجتمع التارقي، يقودنا إلى المكانة التي تحظى بها في هذا النسيج البشري المتميز، فما تقوم به المرأة من دور يجعلها الرائد والبطل في هذا المجتمع، إذ يمكن القول إن المرأة هي الأدب والأدب هو المرأة في هذه البيئة، ذلك أنه لا يمكن تصور أدب التارقي من دون المرأة ولا يمكن تصور امرأة تارقية من

دون أدب، وعليه فإن العلاقة جد وطيدة وصلبة ومتينة بين هذين الطرفين، فهي التي تحمل هذا الإبداع وتحافظ عليه لتنتقله إلى الأبناء، ومنه يتناقل الإنتاج عبر العصور والأجيال من خلالها أما كانت أم أختا أم زوجة ، وبالنظر إلى محتوى الكثير من هذه الآداب نجد أن المعني والمخاطب فيه هي المرأة ذاتها.

و هذا الدور الكبير للمرأة التارقية يظهر إذن من خلال ثلاثة أدوار:

أولا : كون المرأة هي الوعاء الذي يحمل هذا التراث العظيم، ويحافظ عليه من التلف والاندثار بين الأفراد، لتكون المرأة بهذا الدور العظيم الحصن الحصين والحائل القوي لتراث التوارق.

ثانيا: قد نجد أن المرأة ذاتها قد تكون هي المنشئ له والقائل مباشرة سواء للشعر أو الحكم أو الأمثال أو النوادر أو القصص والحكايات بأنواعها.

ثالثا: إن القناة الناقلة لهذا الأدب، والتي تتكفل بعملية إيصاله وتوصيله من جيل إلى الذي بعده هي المرأة ذاتها.

ومن هنا يمكن القول إنه لولا المرأة لما كان للتوارق أدب، ما دامت هي القائل، وهي الموضوع وهي أيضا قناة نقله بين الأجيال، وهذا إلى جانب كونها الأم والزوجة والأخت والابنة، لتضمن لها هذه المراتب مكانتها وأهميتها، وبذلك تُحظى - بدون شك - بأحسن معاملة أينما كان مكانها، وحيثما كانت مرتبتها ومركزها في المجتمع - وهذا إذا علمنا المكانة التي تتميز المرأة التارقية خصوصا في مجتمعها والذي لا يكاد يُؤقى فيه على أمر إلا وللمرأة نصيب وكلمة ورأي فيه، مهما كان : فهي صاحبة السلطة المطلقة في بيتها، وكل ما يتعلق به من شؤون الترتيب والترتيب والتزيين والتربية والتعليم والمطبخ وغير ذلك.

المرأة التارقية أما :

نبدأ أولا من حيث كون المرأة هي المؤدي للأدب في المجتمع، فهنا نجدتها تنقسم أدوارا عدة فكلما قلنا هي أولا وقبل كل شيء الأم التي يعود إليها دور المربية والمعلمة في بيتها، ومنه فإنها من أجل أن ينعم وليدها بالنوم الراحة، ولكي يخلد إلى نوم هادئ نجدتها تقوم بتكرار أهزجج وترنيمات على مسمعه بصوت ملائكي عذب يبعث فيه الأمن والراحة فيغرق في بحر النوم، وما تنشده الأم في ما يُسمى: "أشْوَصْس" *

النص بالتارقية	الترجمة إلى العربية
بُلُولِيَا بُلُولِيَا أَبْرَاضِينْ يَزَا لِيَصْس تَامَرُولْتْ أَوِيْدْ لِيَصْس أَزَاوِينْ يُوْجِي (يُوْقِي، يُوْغِي) يَطْس بُلُولِيَا بُلُولِيَا وَأْتَمْ يَطْس...وَاهِينْ يُوْجِي يَطْس بُلُولِيَا بُلُولِيَا	بُلُولِيَا بُلُولِيَا ابني (ولدي) يريد النوم أيتها الأرنب هات النوم (النعاس) ولدي يرفض النوم بُلُولِيَا بُلُولِيَا ولذلك نام و ابني رفض النوم بُلُولِيَا بُلُولِيَا

فبالرغم من بساطة المقطع وقصر عباراته إلا أننا نجده يحتوي على خصائص ومميزات أدبية ولغوية هامة جدا، والتي نذكر منها:

التزام صاحب القطعة بحرف السين، نهاية كل سطر، والمعروف عن حرف "السين" بأنه من حروف الهمس، والهمس كما يعرفه أهل اللغة: الخفاء، واصطلاحاً: خفاء الحرف لضعفه، وجريان النفس معه عند النطق به لضعف الاعتماد عليه في مخرجه، وحروفه عشرة مجموعة في قول الجزرية¹ "فثنه شخص سكت" وسميت هذه الحروف مضمومة لضعفها، وجريان النفس معها عند النطق بها لضعف الاعتماد عليها في مخرجها². كما أنّ الهمس واللين والترقيق أو الاستفحال والاذلاق تمثل الضعف والحفة.

فالأم في حالتها هاته بصدد محاولة تنويم صغيرها، فهي بهذا في حاجة إلى كل ما لا يثير القلق ولا الاضطراب، وإنما تحتاج إلى الهدوء والراحة بعيداً عن الصخب والضوضاء والضجيج، وهذا من خلال محاولة إحداث أقل اهتزاز من شأنه أن يُبعد النوم عن صغيرها. كما نجد تكراراً للترنمة في أول القطعة ووسطها، وفي نهايتها، وهي: "بُلُولِيَا..... بُلُولِيَا"، وكأننا بها بحركات حنونة تترت على ابنها وهي تحركه في حضنها، وهو المهد الطبيعي له آمنة - بكل حركة تقوم بها وسكون تؤديه - أن تجلب لابنها النعاس والنوم.

المرأة التارقية زوجة وأختا :

ثم تنتقل بنا الوضعية من حنية الأم وعطفها على صغيرها، إلى الزوجة والأخت - وربما إلى العشيقة في ليالي السمر "أهال" - فنجد أنها لم تتخل عن مكانتها ودورها الأدائي، حيث نراها دوماً تقوم بما هو منوط بها، ومن هذا المنطلق، وعند البحث عن ما تؤديه المرأة التارقية نجدها أولاً وقبل كل شيء - ترتبط ارتباطاً يكاد يكون ارتباط التوأم بتوأمه الحقيقي، وبمعنى آخر وجهان لعملة واحدة - هي الموسيقى والأداء الموسيقي، كما أن الموسيقي لا تقوم إلا بها، وهذا يظهر جلياً في العلاقة بين التارقية وآلتها المميزة والعجيبة* : آلة "الإمزاد"³ بمنطق: "آهقار". ولا يخفى العزف أو الضرب على هذه الآلة إلا من طرف النساء المتمكنات والعارفات بطريقة الأداء والعزف، وكأنها أداة لا تتصاع إلا للمرأة، وهي محترمة على الرجال في مجتمع "إيموهاغ"، كما لا يصاحب أنغام "الإمزاد" غير صوت المرأة، فهي تعزف عليها أجمل الأنغام ومن الألحان أعذبها، في مختلف المناسبات، والأفراح، والأفراح، وليالي السمر والأنس. ولعلّ "داسين ولت إيهما" (1873م - 1933 م)، من أشهر شاعرات الأهقار - إن لم تكن هي الأشهر - الحكيمة واليهما يرجع في العديد من الشؤون السياسية والاجتماعية، من أبرز العازفات على "الإمزاد" بمنطقة "آهقار"، كما أن نسبها يمتد إلى أشرف المنطقة وهي من الأسر الحاكمة ومن أهل الطبل. ولا يمكن أن حصر الأداء الغنائي والعزف على "داسين"، وإنما هناك كثيرات، للتمثيل لا للحصر نذكر منهن: "تَزْرُغُ بن عمر (84 سنة)، (ت: 2009م)، وهي عميد وسفيرة "الإمزاد"

و من الأداءات التي تبرز فيها المرأة أهازيج "التيندي"، ورقصات "إيلوجان"، وهذه الأخيرة نسبة التسمية فيها إلى بطلها وهو الجمل، إذ أنّ الأغاني والأنغام تؤدي الرجال يجوبون المكان ذهاباً وإياباً، وهم يمتطون إبلهم والتي تكون في أجمل وأبهى صورة من حيث ما يلبسونه لإبلهم بدأ من الراحة والأغطية المزركشة والتي تكون من الحرير الملون والجلد المصبوغ، إلى جانب ألبسة الفرسان التي لا تقل جلالاً عن تلك على ظهور جبالهم، - وطبعاً - كل هذا تحت أنغام "التيندي"، وأصوات النسوة، وفي هذه الأنغام والأهازيج تقوم النساء بوصف الفارس الذي يكون الأفضل من حيث الامتطاء والركوب والاستقرار على ظهر بعيره والقدرة على التحكم فيه من خلال لجأه، فيكون الجمل طيعاً

مطعيا لصاحبه، وكذا من الناحية الجمالية للفارس وبعيره، وما تنشده المرأة في هذا السياق القطعة التالية، حيث تحت المرأة ذاتها النساء والفتيات للتوجه إلى مكان العزف والالتقاء (أين يجتمع العازفات ويلتقي الفرسان "الجمالة"):

تعريب القطعة	القطعة الأصلية بالتارقية
قصيرة هي أمسيتم ولا تعجني حلّ الليل بينما لا يزال المكان بعيدا (الملتقى) حلت الظهيرة واليوم منعش (به نسمة برودة، منعشة) ما أطول نومك حتى امتداد الظل وانتشاره الآن أسرع في مشيكن إلى المنبسط أين يمكن الاستراحة (الملتقى)	جَزُولْ تَاذُوَيْتْ تُونْ وَزْهِي تَقِيرَزْ يَهْأَهْتْدْ أَسْدَلْ أَسْ رِيغْ لِيُوَهْزْ تَرْقَاتْ آيَهْزْ أَهْلْ لِيُوِيُوِيْ لِيَكِيْثْ طَطَّاسْمَتْ تَلْغْ تِيلِي دِيْمَاغْ سَمَلِيْمَتْ دَغْ تِيَكْلِي تَكَمَتْ تَسَوَلَتْ تَكْدِيْثْ

و مما تغنيه النسوة في حفلات "التيندي"، وتخطب فيه الأم عريس ابنتها توصيه فيها خيرا بها، فإمسك بمعروف ومعاشرة طيبة، أو تسريح لإحسان دون أذيتها ولا الإضرار بها، بدأ من المعاملات وانتهاءً إلى المأكّل والمشرب، وهذا بعدما قدمت له التحية وأسمى معاني الاحترام.

أَتَّاسْ وَأَسْدُوِيْنْ
تِهُولُكِيْ تَاَصَقْلُتْكَ
تَتَاكْ أَقْرَاشْ يَلِيْسْ
آرَاشْ تَدْبُوْنَتْ تِيَسِيْ
آرَاشْ الْخَرِيْرْ تِيلِيْ
وَرْتَتْ إِيْنِيلِيْ أُنْسَاكَنْ
وَرْتَتْ آزْ إِيْنِيلِيْ أَنْ فُوْدَاَنْ
وَادْ إِرَاَزَاَنْ أَهْبَقَايْتْ

و نجد أيضا التارقية تفتخر بالرجل في العديد من القطع الشعرية في أغاني "السببيا"، المناسبة السنوية التي تقام بمدينة "جانت"، وهي بمثابة منافسة بين حيتين عتيقين هما: حي "الميهان"، أو "الميزان" - كما يسميه أهل المنطقة، كما يطلقون على أهل هذا الحي اسم "كيل الميزان"، أي أهل الميزان، والحي الثاني هو حي "زلواز"، ويسمى سكانه: "كيل تَرْوُتْ" - وهناك حي ثالث في المدينة بعيد المشاركة في هذه المناسبة، بل ولا يحضره سكانه (إلا نادرا)، وهو حي "أَجَاهِيلْ"، وأهله هم "كيل أَجَاهِيلْ"، وهذا كون الحي حي أهل القرآن، فهم بذلك أهل الفقه والعلم الشرعي، حتى أصبح يُعرف أهله باسم "الطويلة" نسبة إلى عبارة "الطالب" والتي معناها الإمام ومعلم القرآن. فهذه المنافسة هي في الواقع بمثابة مناظرة بين الحيين حيث تقوم نساء وفتيات كل حي بذكر خصال الجمال لدى رجال حين وبالمقابل محاولة النيل من نظرائهم من الحي المافس، وهذا كله من خلال أمرين اثنين هما الأشعار والكلمات المناسبة والعبارات المعبرة، وكذا الأزياء، وخاصة لباس "تَكْمِيْشْ" وهي الضراعة، والتي يتم عرضها بين الحاضرين، والحكّام،

الذين بدورهم (الحكّام) يقومون بالتقييم من حيث الأداء والأنغام، ومن حيث جمال "تكميشت" : لونها، وتناسقها، وتناسب ألوانها.

و من القطع التي ترددها النسوة، ما جاء على ألسنتهن من فخر لـ "كيل الميزان"، حيث يقلن:

- 1.1 سرهو وان أحمد يوكي داتون *** كوديت آينازن تغلا فولون
- أقلن دس مهور أويبيرت *** أقلن دس مهور أويبيرت
- أناس إيزلواز أج وانتهي *** أنجأك كي يرنان سنساس إيري
- تزلان توفات أتج توفرن *** آس إي يفو هيغ دوغيا
- ورنكسوز تامط كوتر توماس *** تيملن تقالت يكس تيضاف
- تارغ تانوييت تكتا أمسوا *** كود ايزيم أدكر سسمض سانوا
- كوي تكنيد آهر نكنام إيلوا *** نكنام اسنجاس ويرغ تيسوا
- أمغرغ ياسين آر الحمدوا *** ناغهام أس لشان اسنفروا
- نوماسام تيمسي فول ايجاضوا *** نوماسام تيمسي فول ايجاضوا

ومما جاء في القطعة، الحديث عن جمال "أحمد"، والذي وصفه بالملاحة والبهاء، وهن يشرن إلى نظيرتهن بأن هذا الحسن والبهاء لو كان مما يُباع، ويُشترى، فإنه باهظ الثمن بالنسبة لكن،...و تواصل نساء حي "الميزان" في ذكر أن المنافسة ستكون بـ "دوغيا"، وهو مكان إجراء المنافسة والمناظرة، وهي مكان فسيح يمتد على طول الوادي الكبير الذي يفصل "جانت" إلى صفتين: شرقية وغربية، وبأن السلاح الذي نعد عليه هو القرآن العظيم، وهذا يتضح من استعمال عبارتي "ياسين" و"الحمدو" بمعنى فاتحة الكتاب، لما لهاتين السورتين من تأثير على جميع أحوال البشر، (و قد يحتمل المعنى قراءة القرآن بدأً من "ياسين" إلى غاية "الفاتحة").

طبعا النماذج عديدة ومتنوعة، فيما يخص ما تمت الإشارة إليه: العنصر النسوي هو الناقل للتراث اللامادي بين الأجيال، ونضيف قائلين بأن هذا العنصر في مجتمع "إموهاغ"، قد يكون ناقلا للأشعار "تيسوأي"، وقد يكون هو القائل والمنشئ لها أصلا، ونقول هذا لأن الكثير من أشعار التوارق لا يُعرف لها قائل بعينه، وإنما تناقلته الألسن عبر الزمن وبين الأجيال.

الأدب والمرأة عند المرأة التارقية

كما تجدر بنا الإشارة إلى كون الغناء التارقي - الحديث عن الغناء يؤول معناه إلى الحديث عن الشعر "تيسوأي"، لأنه بها يتم الغناء - عرف الكثير من التطورات، سواء من حيث الأداء، أو من حيث آلاته، فمن حيث الأداء نجد أنّ - أغلب - المغنيين المعاصرين هم من فئة الشباب الذكور، وأما الفتيات فقد اقتصر أدائهن على تكرار الترنيم أو المقطع من الأغنية، وأما من حيث آلات العزف فإن وسائله الجديدة أضحت من الحديثة والمعاصرة، وأما "الإمزد" و"التيندي"، فقد صارت نادرة، ويُعرف عليها في المناسبات الخاصة، والحفلات المناسباتية.

و مما أصبحت فيه المرأة التارقية موضوعا، سواء من الشعر والنثر نجد: في وصف المرأة:

إدرشامن أينين ورتنيسن أضوتن⁴
 كنينياسكتامن الكاضن ملولني ور
 تيفرينم إيسوالن وريتومس أن بنان
 إدمارمن إيتغسان دغ سادوالغ إيفرغان
 تيطاومن إيفزران دغ سوافغ إيشنغان
 التعريب:
 أشرك (رائحتك) جديدة لا تزيلها الروائح
 ذكرياتك أوراق بيضاء غير مكتوبة
 كلماتك جبال لا تمسح بيسر
 صدرك أراض جرداء أنبت فيها البساتين
 عيناك واحات أطرد فيها اليرقات

قول أحد الشعراء متغزلا بالمرأة:

تَكَلَيْتُ أَهْكَضَ

إَيْتُ فُولُ إِيَّتْ

تَوْهْسَايْتِيَّتْ

رَكْنِيَّتْ تَا زِيدِيرْت

دَاغْ أُولْوَيْنْ

- مشيتها غزال

- وحدة فوق وحدة (خطوة تلو خطوة، مشي منظم ومتناسق)

- جمالها (حسنها وبهاؤها)

- يزيل الصبر (يجعل الصبر ينفد)

- من القلوب

و في مقطع من قصيدة "طمط أن موهاغ" للشاعر الشاب المعروف خافي أق هاني⁵، متحدثا وواصفا فيها اللباس الذي ترتديه التاريخيات، وهو الأليق بها لما يمتاز به من خصائص، كالستر والعفة والجمال، حيث يقول:

طمط أن موهاغ تلسات تيسغناس

سرهو تيهوساي تالق ليسرماس

ماستاقن ييطويل تلساس أكرابس

تظا امانيت اقماضت قرقاس

طمط أن موهاغ أنهاقس تغناس
التعريب:

المرأة التارقية مرتدية تيسغاس*
المحبة الجمال الأخلاق الجذابة
لماذا تلبس السروال ترتدي له قميص
تعصر نفسها ويبرز صدرها
المرأة التارقية تليق بها التسغنست

النثر عند المرأة التارقية:

و بالانتقال بين أحضان أدبنا التارقي، وبالتحديد النثر منه نجد أن المرأة التارقية كان لها نصيبها. فبالإضافة إلى كونها المنشئ أو الناقل لهذا الصنف من أدب "إيموهاغ"، كما هو الشأن بالنسبة للشعر تماما، فالتارقية تنقل كل شيء للأجيال، ودون استثناء - نجد حضورها حاضرة ك موضوع فيها أيضا. ففي الأمثال التارقية تم التعرض إلى المرأة، ومنها:

- "تْرا أَنْ تِصْصِيْضِيْنْ إِيْمِيْثْ أَسْلْ بَكَاْضْ"⁶ ← حب النساء فيه مجلبة للأخلاق الفاضلة (مدعاة للفخر).

و هذا مفاده أن حب المرأة فيه من الأخلاق النبيلة، والشجاعة والكمال ما يرفع من مقام الرجل، سواء بين أهله، وأصدقائه والعشيرة كلها.

- "زَكِيْسْ أَرْمَرْيْ أَنْ طَلَطْ أَدْ وَرْتَدُوْذْ" ← من السهل تطليق (التخلي) عن المرأة التي لست مرتبطا بها.

ففي المثل ما يفيد أن التخلي والتطليق للمرأة التي لا تربطك بها العلاقة الشرعية هو من السهولة بمكان، وهذا عكس الزوجة، فإن تسريحها فيه من العسر ما فيه، وخاصة بالنظر إلى المجتمع، وصورة الطرفين بعد حل العروة الشرعية بينهما، وخاصة أن أبغض الحلال عند الله الطلاق، كما أن سيد الخلق عليه الصلاة والسلام أوصى الرجال بالنساء خيرا، وهي وصية شاملة وممانعة ودائمة لا تحدها أمكنة ولا تنحصر في أزمنة، حيث قال: "استوصوا بالنساء خيرا، فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج ما في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوجا، فاستوصوا بالنساء خيرا"⁷.

- "أَبْقِيْ وَرَائِيْ إِيْنْ أَهْلْ تَمُوْذْ" ← الشعب لا يعقد قرانه يوم العيد. وهذه إشارة واضحة صريحة لمن أراد اختيار عروسه، عليه أن لا يتم هذا الأمر يوم العيد، ذلك أن في هذا اليوم كل النساء تترنن، فتظهر كلهم جميلات، بعد وضع مساحيقهم وارتداء ألبستهن المبهجة والمزركشة، فيفتن بهن الرجال، بل يجب أن يكون الاختيار في يوم آخر، كما لا بد أن يكون اختيار شريكة الحياة مبنيا على أسس بينها الإسلام، والتي على رأسها "ذات الدين والأخلاق"، ويقول المثل المحلي: "لا يعجبك نُّوار الدَّفلة في الوديان (الوديان)، داير ظلايل (ظل)، ولا يعجبك زين

الطفلة حتى تشوف لفاعيل"⁸. وهذا لا ينفي أن يكون لمعيار الجمال نصيبه حين الاختيار، فقد ذكر الإسلام بأن المرأة تُنكح لأربع، وذكر من ضمن الأربعة: "... وجالها..."، حيث، جاء عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي عليه الصلاة والسلام، قال: "تُنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، وجالها، ولدينها، فافطر بذات الدين تربت يداك"⁹. وبالمقابل نجد أن الحسن والجمال إنما هما معياران قد لا يُعابها في بعض المجتمعات كمجتمع اليابان مثلا، فقد جاء من الحكم الواردة في تراثهم أن حياء المرأة أشد جاذبية من جمالها، ويقابل هذا الكلام، ما جاء من أقوال أخرى حيث يُقال أن القبح أفضل حارس للمرأة - وهذا لا يعني بأي حال من الأحوال، أن المرأة لا بد أن تكون قبيحة حتى تكون صالحة، وعلى قدر كبير من التربية.

- "أذْئُولِي تِكْلِي أَنْ طَمَطْتُ نُفَيْثَ تَغْيِيثٍ أَثَيْثُ" ← مهما كان خروج المرأة جميلا، فإن بقاءها أفضل وأحسن لها (الخروج من غير ضرورة، أو أسباب). وهذه حكمة عند العرب ما يقابلها ويفيد معناها، وهو: "المرأة زهرة لا يفوح أريجها إلا في الظل".

- إِرْدُ لِمَيْصَنْ إُشَاشَارْ" ← الرماد ناعم الملمس فيه العطب، وهذا المرأة، فمها كانت ضعيفة وقلها مليء بالرحمة والحنان، فإنها شرسة وخطيرة إذا ما أتمت أذيتها أو المساس بها وإلحاق الضرر بمن حولها من أبناء وأسرة، فهي تنتقل من الجمل الوديع إلى الأسد الضاري والمفترس، وقد قال الشاعر:

إِنَّ الْأَفَاعِي وَإِنْ لَانَتْ مَلَامِسُهَا # عِنْدَ التَّقَلُّبِ فِي أُنْيَابِهَا الْعَطَبُ

و ما أورده القصص والأساطير* والحكايات التارقية عن المرأة كثير لا يمكن حصره ولا الوقوف عليه كله، ولكن ذكر البعض يُعني في دراستنا هذه المتواضعة، ومما جاء في هذا الفن:

● "يُحْكِي أَنَّهُ فِي زَمَنِ مَا سَافَرَتْ أَسْرَةٌ تَارِقِيَّةٌ، مَتَكُونَةٌ مِنَ: الزَّوْجِ وَزَوْجَتِهِ، وَابْنَيْهَا، وَالصَّهْرِ(أَخُو الزَّوْجَةِ)، وَقَدْ نَالَ مِنْهُمْ التَّعَبُ، وَأَعْيَاهُمُ الْمَسِيرُ، بِسَبَبِ الشَّمْسِ الْمُحْرِقَةِ الْجَوِّ شَدِيدِ الْحَرَارَةِ، هَذَا إِلَى جَانِبِ الْمَخَاطَرِ الْآخَرِ وَالَّتِي مِنْهَا: الطَّيُورُ الْجَارِحَةُ وَالَّتِي تَتَرَيَّصُ بِكُلِّ مَنْ يَمُرُّ بِهَذَا الْمَكَانِ عَلَيْهِ يَكُونُ فَرِيْسَةٌ مِنْ حُظَّهَا، وَمِنْ حَشَرَاتِ سَامَةِ كَالْعَقَارِبِ وَالْعَنَاكِبِ، وَزَوَاحِفِ مِمِّيَّةٍ، كَالْأَفَاعِي وَالثَّعَالِبِينَ الَّتِي كَانَتْ تَلَوِّذُ تَحْتَ كُلِّ صَخْرَةٍ أَوْ شَجَرَةٍ فَرَارًا مِنَ الْحَرِّ مِنْ جَهَّةٍ وَمِنْ جَهَّةٍ أُخْرَى تَنْتَظِرُ الْفَرِيْسَةَ الْمُحْتَمَلَةَ، وَالَّتِي تَفِرُّ بِدَوْرَهَا مِنْ قَسَاوَةِ الْجَوِّ وَالطَّبِيعَةِ وَبَحْثًا عَنِ الْقَلِيلِ مِنَ الظِّلِّ، وَفِي الْوَقْتِ الَّذِي كَانَتْ الْأَسْرَةُ التَّارِقِيَّةُ مِنْهُمْ كَافِيَةً فِي الْبَحْثِ عَنْ مَلَاذٍ مِنَ الْحَرَارَةِ وَالشَّمْسِ، وَاتِّقَاءِ الزَّوَاحِفِ السَّامَةِ، كَانَ هُنَاكَ خَطَرٌ آخَرٌ يَتَرَيَّصُ بِهَا، وَلَمْ يَكُنْ هَذَا الْخَطَرُ بِالْمَتَوَقَّعِ وَفِي هَذَا الْمَكَانِ تَحْدِيدًا - لَعَدَمِ تَوَقُّعِهِ هَا هُنَا - نَعَمْ، كَانَتْ هُنَاكَ مَجْمُوعَةٌ لِمُصُوعٍ تَرْتَقِبُ مَجِيءَ الضَّحْيَةِ (الْأَسْرَةِ)، بِكُلِّ هَدْوٍ وَأَنَاتٍ، حَتَّى اسْتَقَرَّتْ بِمَكَانِهَا، حَيْثُ كَانَتْ (الْأَسْرَةُ)، تَبْحَثُ عَنْ مَلْجَأٍ يَقِيهَا الْحَرَّ وَالشَّمْسَ، لِيَخْرُجَ قِطَاعُ الطَّرِيقِ،.....أَرَادَ اللُّصُوصُ الْعَبَثَ بِالتَّارِقِيَّةِ وَأَسْرَتِهَا - بَعْدَمَا ظَهَرَ الْخَوْفُ وَالْفَرَجُ عَلَى الْأَسْرَةِ -، وَهُمْ يُوْجِهُونَ كَلَامَهُمْ إِلَى الْمَرْأَةِ قَائِلِينَ بِأَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَى الْفَتْكِ بِالْجَمْعِ، وَدُونَ اسْتِثْنَاءٍ، لَتَرَدَّ عَلِيمُ الزَّوْجَةِ الشَّجَاعَةِ، وَبِكُلِّ فُخْرٍ وَاعْتِزَازٍ قَائِلَةً: "نَعَمْ، أَتُمْ قَادِرُونَ عَلَى قَتْلِ زَوْجِي أَوْ ابْنِي، وَيُمْكِنُنِي الزَّوْاجُ مِنْ زَوْجٍ آخَرَ، وَإِنْجَابُ ابْنٍ آخَرَ، وَلَكِنِّي لَنْ أَتِمَّكَنَ مِنْ إِيجَادِ أَخٍ آخَرَ، إِذَا مَا أَتَمَّ قَتْلَهُمْ". وَأَمَامَ هَذِهِ الْمَرْأَةِ الْجَرِيئَةِ وَالْفَصِيحَةِ، انْبَهَرَ اللَّصُوصُ، وَتَابَعُوا طَرِيقَهُمْ دُونَ التَّعَرُّضِ لِلْأَسْرَةِ بِأَذْنَى¹⁰.

• و من أساطير الجن التي تبرز للتارقية مكائنها، " أن رجلا نزل من على فرسه، بواد يُسمى "إديمي نائلا"، أي هضبة الحناء، أو وادي الحناء، بسهب صغير "أغريس"، أين رأى جيتين تمشط كل واحدة منهما للأخرى، لم يكن متأكدا مما كان يراه، غير أنه أمعن النظر جيدا فيما كان يرى حتى تأكد من أنهما جيتتان حقا، ولم الأمر مجر وهم وخيل، فعزم على إلقاء القبض على إحدهما، ليمطي فرسه من جديد لكن هذه المرة من أجل ما عزم عليه من أمر، وليس فرارا، أو هروبا منها، فلما طارد الفارس الجيتتين، انطلقتا مسرعتين كل منهما في اتجاه، من أجل تضليله وتشيت انتباه، ولا يستطيع أن يدرك أيّ منهما، غير أن الرجل كان عازما على أن يصيد إحدهما، فتعقب هدفه ولاحقها إلى أن أدركها، وهذا بعد أن وطئ بقدمي فرسه على شعرها لفرط طوله، لتعثر ويلقي عليها القبض. أخذ الفارس الجنية إلى داره، ليدرك أنها لا تتكلم - كأنها بكاء - لكنها كانت تدرك وتفهم تماما ما يقوله لها، ويحادثها به، فطلب منها الزواج، فوافقت، وشاء الله أن يُرزقان طفلين غاية في الحسن والجمال، غير أنه - وبالرغم من حياتها الهادئة والأرب إلى السعادة، كان الزوج يتخفى في قرارات نفسه أمنية، تتمثل في رغبته سماع صوت زوجته ولو مرة في حياته، فهي زوجته وهو يحتاج إلى السمر معها وإلى الحديث والتشاور معها في كل ما له علاقة بحياتها، لكنه لم ينل ذلك، فما كان منه إلا أن توجه إلى الفقيه (الطالب)، هذا الأخير وبعد قصص عليه الرجل قصته الغريبة، نصحه بلجوء إلى الحيلة والدهاء والمكر، من أجل بلوغ غايته.

كانت الحيلة التي أشار بها الفقيه على الزوج المسكين تتمثل في إبداء رغبة وإرادة في ذبح أحد ابنيه، وعلى الزوج أن لا يُبدي أي علامة من علامات التردد، وبأنه لن يتوقف عما عزم عليه، ولا يُثنيه عن مراده غير نطق زوجته، وكلاهما، وهذا هو الحل الوحيد لمعضلته ومشكلته. امتثل الرجل ورضي بالحيلة، فقام الزوج بتطبيق الحيلة والخطوة تماما كما نصح الفقي، وما إن انحنى الأب على ابنه يريد ذبحه - حسب الخطوة - حتى أخذت الأم - المسكينة والحنون - في تممة عبارات وكلمات غير مفهومة، ولا يمكن للزوج فهمها، ثم تقيء شيئا يشبه قطعة لحم، لتخرج إثر هذا القيء عبارات واضحة ومفهومة تتوسل فيها إلى زوجها بعدم ذبح ابنها، وهي تقول بلغة واضحة، وعبارات مفهومة: "سأتكلم...سأتكلم، ولكن لا تذبحه"، لتردف قائلة: "سأتكلم معك، ولكني أوصيك ثلاث وصايا، أولها هذه الوصايا، أن لا تُطعم أبناءنا طعاما بقي أكثر من ثلاثة أيام، وثاني وصيائي لك، أن لا تسقيهم (الأبناء)، الماء المتبقي في القرب (بقايا الماء)، أما ثالث الوصايا، أن لا تجعلهم ينامون في الأماكن القذرة".

سمع الزوج كلام زوجته، وبكل فرح، واهتمام، وتم قبول الوصايا، ليتوجه بعده مباشرة إلى الفقي ليخبره بأمر زوجته وما كان بينها بعد تنفيذ الخطوة التي اتفقا حولها، ليقول له الفقي: "كل ما قالته زوجتك سليم، ولكن أضف إلى ذلك الوصية الرابعة من عندي، وهي، أن تحثوا التراب في وجهها أبدا مهما كانت الأسباب، ومهما حصل بينكما".

عاش الزوجان حياة سعيدة، بعد أن حقق الزوج مبتغاه، ونال مراده، وفي غمرة هذه الحياة السعيدة، وبعد زمن طويل من الهناء، والود والصفاء، نسي الزوج وصية الفقي نصيحته، وفي خضم نقاش كلام، ومشادة كلامية بين الزوجين، وفي حالة غضب من الزوج، قذف التراب في وجه زوجته الجنية، ولمح البصر اختفت المرأة ولم يعد له وجود، وكأنها لم تكن أصلا بينهم*.

خاتمة:

- إن من أهم ما يمكن أن نخلص إليه من خلال هذه الأسطر المتواضع، نجمله في عدة نقاط:
- عراقة الأدب التارقي لا يمكن نكرانها، ولا تناسيها، وخاصة بعد الأعمال المتواصلة في التنقيب عنه، وإبرازه للباحثين، والمهتمين به.
 - الأدب النسوي في المجتمع التارقي، كان ولا يزال حاضرا، وبقوة من خلال إسهامات المرأة سواء بذاتها كمنشئ ومبدع، أو كناقل، من جهة، ومن جهة أخرى، كموضوع يدور حولها الحديث (شعرا ونثرا).
 - مكانة المرأة التارقية، من خلال الدور الذي تلعبه بين أحضان أسرتها، وبين أبناء قبيلتها.
 - تنوع المواضيع والأغراض التي يعالجها التارقي من خلال أدبه، والتي تمت بعلاقة مباشرة ووطيدة بالحياة اليومية والممارسات الحياتية.
 - صورة المرأة التارقية، من خلال الكتابات الغربية (المترجمة وغير المترجمة إلى اللغة العربية)، والبحوث المتواضعة للباحثين المحليين، والعرب.
 - التمسك بكل ما يربط بيئة التوارق عموما، والمرأة التارقية خصوصا، ويضمن استمرار الأصالة، والعراقة، من خلال مواصلة البحث والعمل الجاد المبني على أساس الجدية والإخلاص، والمصادقية في تقديم الأبحاث العلمية إلى العالم، وإخراجه إلى كل مهتم، ليستفيد منه في حياته البحثية، أو على الأقل الإطلاع عليه، في ظل وجود بعض المغالطات التي تظهر عبر منصات التواصل الاجتماعي والتي لا أساس لها من الصحة، بل ولا تجانبها حتى.

هوامش:

- * - أسوؤس، التنويم، ومصر كلمة "إيَّس" أي النوم، ومنها اشتقت الأفعال في الأزمنة يَصلُّس (الماضي)، يَطَّاش (المضارع)، أَطَّش (الأمر)، وهي على التوالي: نام، ينام، نم، والملاحظ استبدال الـ "ضاد" بالـ "طاء"، وليس هذا مجال الخوض في تفاصيل الحالة.
- ¹ - الإمام العلامة شيخ الحدين، محمد بن محمد بن علي بن يوسف ابن الجزري (751 - 833 هـ)، "المقدمة الجزرية" ضبط وتصحيح ومراجعة: محمد تميم الزغني، ص: 3. بدون سنة طبع ولا دار طباعة.
- ² - محمود بن علي بسَّه المصري (ت بعد 1367 هـ)، العميد في أحكام التجويد، تحقيق محمد الصادق قحواوي، الطبعة الأولى (1425 هـ / 2004 م)، دار العقيدة - الإسكندرية - جمهورية مصر العربية، ص: 59.
- * - عجبية من حيث شكلها ومن حيث أدائها، والأنغام التي تنبعث منها
- ³ - آلة موسيقية تارقية تشبه في شكله الخارجي آلة الربابة العربية، أو الكان، وحيدة الوتر، أما قوقعتها فهي من نبات اللِّبَاء، أي القرعة (كما تعرف محليا)، أو "تَنْوُث" بالتارقية، ولها شعرة وحيدة تمتد على طول الآلة، ومنه أخذت التسمية. (إمَّزَاد) أي الشَّعْر، ويكون من ذيل الحصان عادة، وللإشارة: أصبحت آلة الإمزاد من التراث العالمي اللامادي المعترف به من طرف المنظمة العالمية لليونسكو
- ⁴ - فرتوين مولود، الشعر كممارسة ثقافية عند إيموهاغ، بياض، حي الشهيد بوطويقة، برج الأمير خالد، ولاية عين الدفلة الجزائر، الطبعة الأولى، 2021، ص: 95.

- ⁵ - من الشعراء الشباب، من مواليد 1967 م، بمنطقة "فلوكس" غرب ولاية "إن قزام" حاليا.
- * - رداء، أو ملحفة تلبسها المرأة، حيث تغطي جميع جسمها، وتستزها.
- ⁶ - أ. زيتوني علي، أستاذ لغة "أمازيغية" تعليم متوسط، باحث ومهتم بالتراث، من منطقة تماراست، "أمثال وحكم تارقية"، مخطوط في مكتبة الأستاذ الخاصة جمع فية العديد من الأمثال والحكم، ص: 28.
- ⁷ - رواه البخاري في "كتاب النكاح"، باب الوصاية بالنساء، تحت رقم: 4787، ورواه مسلم في "كتاب الرضاع"، باب الوصية بالنساء، تحت رقم: 2671.
- ⁸⁸ - راجح خدوسي، قاموس العالم في الأمثال والحكم، دار الحضارة، المؤسسة الثقافية للتأليف والنشر، الجزائر، الطبعة الأولى، 1995، ص: 170.
- ⁹ - صحيح مسلم، الحديث رقم: 1466، "كتاب الرضاع"، باب استحباب نكاح ذات الدين، المجلد رقم: 4، ص: 175، (مرفوع)، وفي صحيح البخاري، تحت رقم: 5090، "كتاب النكاح"، باب الأكفاء في الدين، المجلد رقم: 7، ص: 7، (مرفوع).
- * الأساطير تُسمى "تينفوسين"، مفرداها "تائفوسث"
- ¹⁰ - MAHDI Boughrari & Annie Rolland "TOUAREG Kell Ajjer" Proverbes et Histoires- Edition Lebrairie du Labyrinthe _ France_ 2005.
- * - قصة رواها "علي التتار"، 65 سنة 2008م، أحد رجال منطقة تماراست، في مقابلة أجراها السيد "توهامي عبد الكريم" المعروف بـ "الخوجة"، نقلها الأستاذ: "مولود فرتوني" عن الراوي.

فائمة المراجع

- القرآن الكريم.
1. البخاري (الصحيح) بولاق - مصر: الطبعة السلطانية - المطبعة الكبرى الأميرية.
 2. - أ. زيتوني علي، "أمثال وحكم تارقية"، مخطوط في مكتبة الأستاذ الخاصة.
 3. - راجح خدوسي، قاموس العالم في الأمثال والحكم، دار الحضارة، المؤسسة الثقافية للتأليف والنشر، الجزائر، الطبعة الأولى، 1995، ص: 170.
 4. - صحيح مسلم، بيروت لبنان: دار الكتب العلمية.
 5. - فرتون مولود، (2021) الشعر كممارسة ثقافية عند إيموهاغ، بياض- عين الدفلة الجزائر، الطبعة الأولى،
 6. - محمود بن علي بسّة المصري (2024)، العميد في أحكام التجويد، تحقيق محمد الصادق قحماوي، الطبعة دار العقيدة - الإسكندرية - جمهورية مصر العربية.
7. - MAHDI Boughrari & Annie Rolland "TOUAREG Kell Ajjer" Proverbes et Histoires- Edition Librairie du Labyrinthe _ France_ 2005.